عربية مجاورة، ومع أن الصورة بدت في ظاهرها، حينذاك، مؤقتة، وادرجت ضمن اطر قومية، واسلامية تضامنية، إلا ان الانظمة العربية سرعان ما ضاقت في تفسير مدلولاتها والتقت، جميعها، على حرمان الشعب الفلسطيني من حقوقه السياسية بدعاوى مختلفة، ابرزها قومية معركة التحرير. في المقابل، لعب عامل الزمن دوراً حاسماً إلى جانب الصهيونية لجهة بلورة الوجود الاسرائيلي كبديل متكامل للوجود الفلسطيني. واستطاعت اسرائيل التي لم يتقاض على انشائها، بعد، وقت طويل، ومستفيدة من النظام الانتدابي البريطاني الاداري ومؤسساته الاقتصادية والتربوية والاجتماعية والعسكرية، من تأسيس شبكة معقدة من المؤسسات السياسية والادارية على ارض فلسطين، وعلى نحو ينسجم مع طروحات الايديولوجية الصهيونية. وقد ادى ذلك، في مجموعه، الى نسج نواة نظام سياسي متمايز بين الكيانات المحيطة به في المنطقة العربية، على الرغم من ان المناخ السائد لا يتفق، اساساً، مع نسجه البيني ـ التاريخي.

لكن، ما هي العوامل المحلية التي سهّلت للحركة الصهيونية انجاز مهمتها في تفريغ المناطق الفلسطينية؟

هناك اسباب عدة أسهمت في عملية اقتلاع الفلسطيني من ارضه، لعل أهمها: أولاً: ان الفلسطينيين، في الاساس، لم يشكلوا، عبر التاريخ الوسيط، والمعاصر، نظاماً خاصاً بهم بالمعنى العلمي للنظام السياسي ـ الاداري؛ ثانياً: ان الشعب الفلسطيني، والجغرافيا الفلسطينية، تمازجا، منذ ما قبل العهود الاسلامية، بالدول والشعوب المحيطة. فعلى الرغم من التطور النوعي للحركة السياسية الفلسطينية ابان الانتداب، وتطور الصحافة ووسائل الاعلام الفلسطينية، كانت برامج الاحزاب السياسية الفلسطينية، لا سيما القومية منها، تؤكد ان فلسطين هي جزء من سورية وان تعبير «سورية الجنوبية» كان يعني، آنذاك، فلسطين؛ ثالثاً: يضاف إلى ما تقدّم ان الكيانات العربية، وعلى الأخص تلك القائمة في الدول المحيطة باسرائيل، لم تستطع ـ حتى في اقصى حالات الازدهار، او رغم مظاهر السلوك الغربي الشكلي التي حاولت الانتلجنسيا الحاكمة في بعضها التطبع بها ـ البلوغ بشعوبها مرتبة المواطنية الحقة، بمعنى المرتبة التي تتعدى، بمسافة بعيدة، مفاهيم العائلة والعشيرة والقبيلة والطائفة. وبسبب ذلك، انطبعت الحركات السياسية القائمة، والتنظيمات الادارية، وخلافها، بسلوكية أقرب إلى البداوة، لأن تلك الكيانات لم تنجح في بلورة وصياغة مفاهيم مؤسساتية.

ان تمازج النضال الفلسطيني مع النضال القومي العربي، وربط المصير الفلسطيني بقضايا التحرر العربي والوحدة العربية في ذلك الوقت، لا ينبغي التعامل معه من الزاوية الايديولوجية المحضة فحسب، وانما من كونه، بمعناه السياسي، جاء مرتبطاً بحالة الكيانية الفلسطينية، من جهة، وبضعف الوضع السياسي ـ الاقتصادي الفلسطيني، من جهة أخرى. والواقع، ان القيادة الفلسطينية سعت في تلك المرحلة إلى كسب دعم القوى السياسية الاستقلالية العربية المجاورة. الا ان تلك القوى كانت قد تسلمت السلطة بعد نيل الاستقلال، واصبحت مسألة الحفاظ على المواقع والمكاسب التي احرزتها تملي عليها صيغ تحالفات جديدة تنسجم مع واقع الحال وتتناقض، في معظمها، مع التحالفات السابقة. ففقدت القيادة الفلسطينية، بذلك، حلفاءها؛ وتدريجياً عُزلت عن ممارسة اي نشاط سياسي مؤثر.